«آه يا بيروت» لـ «رشاد أبي شاور»
بيروت المُقَاوِمة

تمهيد

«رشاد أبو شاور» روائي وقاص وصحفي فلسطيني. ولد في قرية ذكرين، قضاء الخليل، في ١٩٤٢/٦/١٥. عانى ما عاناه أيُّ لاجئ فلسطيني في مخيَّمات الشَّتات، وكتب تجربته هذه، وتجربة الفلسطيني المقاوم في كثير من المقالات والمجموعات القصصيَّة والرِّوايات، ومنها هذه الرِّواية التي تجري أحداثها في مدينة بيروت إبَّان مقاومة الاجتياح الإسرائيلي للبنان وحصاره لعاصمته في عام ١٩٨٢.

كتب أبو شاور، في هذه الرِّواية[١]، شهادة، من ميدان المعركة، فجاءت فصولها كأنَّها بوح أديبٍ مقاوم عاش تجربة الحصار والمقاومة، منذ بدايتها وإلى أن غادرت المقاومة الفلسطينيَّة بيروت إلى منفىً جديد في تونس.

يقول الكاتب في وصف كتابته هذه: «... والكتابة أثناء المعركة، وتحت القصف، وفي لحظات الاشتباك مع عدوٍّ يتحفَّز على الأبواب والنَّوافذ، ليقتحم عليك حرِّيتك وكرامتك ليست سهلة؛ خاصَّة وأنَّها (شهادة) عن النَّاس وصلابتهم وحزنهم وقدرتهم على التحمُّل والتَّواصل الإنساني النبيل» (صفحة الغلاف الأخير).

تهدف هذه الدِّراسة إلى تقديم قراءة في هذه الرِّواية تتبيَّن فيها أمرين:

(١) رشاد أبو شاور، آه يا بيروت، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الخامسة، ٢٠٠١، الاقتباسات، من الرِّواية توضع بين قوسين في المتن.

أوَّلهما هويَّة مدينة بيروت، المدينة المقاومة للاجتياح الرِّامي إلى إلغائها، وجعلها تفقد هويَّتها، بوصفها مدينة/ فضاء الحريَّة والثَّقافة والتَّعدُّد والتَّنوُّع والمتع والمقاومة...، أي بوصفها «**مدينة لا تشبهها أي مدينة أخرى في العالم**» (ص. ٢٥٩)، كما يقول الرَّاوي في هذه الرِّواية، وثانيهما موقعها في بنية الرِّواية ودورها في إنتاج فاعليتها الجماليَّة الدَّلاليَّة.

بيروت بين عدوَّين وأمام مصيرين

عتبة الرِّواية

تشمل عتبة هذه الرِّواية الغلاف والعنوان والتَّصدير.

تتكوَّن لوحة غلاف الرِّواية من تطريز فلسطيني يؤطِّر، من اليمين، صورة مقاتل فلسطيني ملثَّم بالكوفية الفلسطينيَّة، فلا تبدو للنَّاظر سوى عينيه الرَّائيتين بنظرة نافذة إلى البعيد، وفي الزَّاوية اليسرى ضمن إطار صورة مواطن فلسطيني يرتدي اللباس التقليدي الفلسطيني ويبدو كأنَّه يقرأ في كتاب، وتتكرَّر هذه الصورة في صفحة الغلاف الدَّاخلية.

تمثِّل هذه اللَّوحة الفضاء الفلسطيني بتراثه ومقاومته ولاجئيه، وإذ يتصدَّر العنوان: «آه يا بيروت» اللَّوحة، يتشكَّل دالٌّ يفيد الحَسْرَة على «فَقْد» هذا الفضاء/ الوجود الفلسطيني في بيروت، ما يثير أسئلة منها: كيف تمَّ هذا الفَقْد؟ هل تروي هذه الرِّواية حكايته، فتكون شهادة حيَّة على حدوثه؟ هل تصوِّر هذه الشهادة المقاومة، وتدلُّ على أسباب خذلانها ما أفضى إلى الفَقْد؟

في التَّصدير إشارة إلى أجوبة عن هذه الأسئلة. يتكوَّن التَّصدير من ثلاثة أبيات من الشِّعر، بيت لأبي الطَّيب المتنبِّي مأخوذ من قصيدة خاطب بها سيف الدَّولة الحمداني، وهو:

وسوى الرُّوم خلف ظهرك روم فعلى أيِّ جانبيك تميل

وبيتان لامرئ القيس مأخوذان من قصيدة أنشدها عندما عزم على المسير إلى قيصر الرُّوم ليطلب نجدته، وهما:

بكى صاحبي، لمَّا رأى الدَّرب دونه وأيقن أنَّا لاحقان بقيصرا
فقلت له: لا تبكِ عينك إنَّنا نحاول ملكاً أو نموت فُنعذرا

يشير التَّصدير (ص. ٥) إلى أنَّ المقاومة كانت تواجه عدوَّين: أحدهما خارجي، وهو العدوُّ المحتَّل، والآخر داخلي، وهو العدوُّ المتعاون مع المحتلِّ، من نحوٍ أوَّل، والمؤيِّد له بصمت من نحو ثانٍ. ما يثير السُّؤال: على أيِّ الجانبين تميل، على جانب الأعداء أم على جانب العملاء؟

ويشير التَّصدير، أيضاً، إن أضفنا إليه الحوار الذي دار بين أبي عمَّار والرَّاوي (ص. ٢٣٩)، إلى أنَّ مسار مقاومة الاجتياح أبرز اتجاهين: أوَّلهما يقتطع بيت امرئ القيس الأوَّل ويكتفي به كأنَّه يرتضي الرحيل بعدما رأى الدَّرب الطَّويل الصَّعب دونه، وثانيهما يكمل فتكتمل الرُّؤية: نحاول ملكاً أو نموت دونه فنعذرا، وكلٌّ من الاتجاهين يرى لبيروت موقعاً مغايراً للآخر، فالأوَّل يرتضي الفَقْد، مرغماً باكياً، والثَّاني يريد أن يواصل القتال فيحقِّق هدفه أو يموت فيُعذر.

وهكذا تكون بيروت أمام مصيرين/ هويتين: أولاهما أن تُترك للعدوِّ السَّاعي إلى إفقادها هويتها وموقعها ودورها، ولتخوض، في ما بعد، أشكالاً أخرى من الصِّراع. وثانيتهما أن تواصل مقاومة هذا السَّعي.

وتترك نهاية الصِّراع مفتوحة، لكنَّ الخيار المقاوم الذي يمكن أن يؤدِّي إلى انتصار ممنوع، كأنَّ هزيمة العدو الصهيوني ممنوعة. يقول الرَّاوي بعد أن اتُّخذ قرار الانسحاب من بيروت:

«والآن... لم ينسحب العدو فنذل سلاطين العواصم. إنَّنا ننسحب فماذا يهيِّئون لنا؟!! إنَّهم يعرفون ماذا يعني انتصارنا في بيروت، فماذا يعني أن تصمد بيروت وتطرد الصهاينة، لذا شاركوا... شاركوا فعلاً... من معرفتهم بالحرب و... حتى الصَّمت... ياللأيام الآتية، إنَّ ما ينتظرنا رهيب». (ص. ٢٤١).

كان الانتصار ممنوعاً، فحدث «الفَقْد» وما تلاه من أحداث رهيبة، منها: «جريمة صبرا وشاتيلا». لكنَّ بيروت سرعان ما استعادت هويتها، وعادت تواصل مسارها بأن تكون مدينة لا تشبهها أيُّ مدينةٍ أخرى.

بيروت فضاء المقاومة ونبضها/ماء الصَّحراء

قلنا: إنَّ لوحة الغلاف تمثِّل الفضاء الفلسطيني. وتفيد قراءة الرِّواية أنَّ هذا الفضاء كان حيِّز الفاعليَّة الفلسطينيَّة. فعلى سبيل المثال، كان في بناية واحدة في بيروت «مكتب لجيش التحرير الفلسطيني، مكتب لمجلة الجيل ودار القدس... ومكتب أبي أياد، وفي الدور الأرضي صالة الكرامة، وهي عبارة عن صالة للعرض الدَّائم للفنِّ التَّشكيلي، لاتحاد التَّشكيليين الفلسطينيِّين» (ص. ١٠٥).

وإذ فُقِد هذا الفضاء الفلسطيني شعر الفلسطينيون بأنَّ الفَقْد الفلسطيني يتجدَّد، فيمتلئ صدره برمل بيروت وبالبرتقالة الفلسطينية، وتسكن عينيه سماء يافا وأذنيه موسيقى الأرغول، ويمضي وفي داخله بيروت: «... أنتِ فيَّ يا بيروت. أنتِ المتاريس والرِّجال الشُّجعان، والأشبال والزَّهرات، ولوحات الزُّهور. أنتِ السَّيدات النبيلات. أنتِ الماء». (ص. ٢٦٨).

بيروت هي فضاء الفاعليَّة و«مجد القتال»، وهي الماء في صحراء العرب والعالم...، إذ كانت تختلط في مبنى الإذاعة اللَّهجات من لبنانيةً وفلسطينيَّة وعراقيَّة ومصريَّة وسوريَّة وباكستانيَّة... وتنمو بين الجميع علاقة إنسانيَّة نبيلة، فتشكَّل أسرة واحدة من العرب، ومن المناضلين من كافَّة أنحاء العالم... وهؤلاء ينتمون لجوهر هموم الأمَّة وهمِّها وهاجسها وحلمها... لفلسطين. (ص. ١٨ و٢٢ و٦٦ و٧٣ و٨٧ و١٣٩ و١٥٣ و٢٣٥).

ففي بناية واحدة أخرى من بنايات بيروت مكاتب لمنظَّمات هؤلاء المناضلين، ما يعني أنَّ بيروت هي فضاء الفاعليَّة المقاومة، وليست كباريهات وبنوكاً وأرضاً للطوائف.

«بيروت سيدة البحر، بيروت الزَّمان، التي رأى فيها بعض الزُّوار العرب مدينة للمتع تبيع كل شيء». يقول الرَّاوي هذا، ويعدِّد أسماء شوارع بيروت التي تخاض على أرضها معارك ضدَّ العدوِّ الصهيوني، ويضيف: «هذا هو وجهها الذي لم يعرفه الباعة والمشترون». (ص. ٧٥ و٧٦).

كان لبيروت وجه يعرفه الباعة والمشترون والذين يرون في بيروت فندقاً يوفِّر المتع، وهؤلاء هربوا عندما فقدوا الفندق، منهم من صمت، ومنهم من رثى، ومنهم من بكى واستبكى، ومنهم من خلص إلى عبر راح يوزِّعها داعياً إلى قبولين: أولهما قبول طغيان القوة العظمى وأداتها إسرائيل، وثانيهما قبول طغيان السَّلاطين المحلِّيين، وفي هذا دعوة إلى فَقْد الفاعليَّة، وفضائها...

لكنَّ نبض بيروت يبقى نبض المقاومة... فتقاوم اجتياحاً صهيونياً يؤازره أعوان محليون، ويشرف رئيس أميركا على تفاصيله. جاء في الرِّواية: «قبل أيام، قال حبيب بأنَّ مشكلة التَّموين والماء موضوعة على طاولة الرئيس ريغن. يا للسفلة، رئيس أميركا يشرف على قطع الماء عن أطفال بيروت. نعم هذه هي أميركا». (ص. ١٩٩).

بيروت الشَّخصيَّة الرئيسيَّة في الرِّواية

وهكذا تمثِّل بيروت، بوصفها هذا: أي فضاء المقاومة والفاعليَّة، وماء الصَّحراء في هذا العالم، الشَّخصيَّة الرئيسيَّة في هذه الرِّواية، وتؤدِّي دور العامل الذَّات الذي يسعى إلى مقاومة من يعمل على إفقاده هويته، فيكون العامل الموضوع، بقاء فضاء المقاومة والفاعليَّة ونبض الحياة وعدم فَقْده. وتكون المقاومة، بمختلف مكوِّناتها، على هذا المستوى من التَّحليل، ممثل الشَّخصيَّة الرئيسيَّة/ العامل الذَّات في سعيها إلى الاحتفاظ بهويتها.

وإن رأينا إلى الرِّواية، من زاوية أخرى، يبدو لنا، على مستوى آخر من التَّحليل أنَّ المقاومة هي العامل الذَّات الذي يسعى إلى بقاء بيروت بوصفها فضاء فاعليته، والماء الذي يسقيه في قيظ صحراء هذا العالم، وتكون مكوِّنات المقاومة ممثِّلي العامل الذَّات في سعيه إلى تحقيق هدفه، وهو الحيلولة دون فَقْد بيروت، ما يعني أنَّ بيروت تمثِّل، على هذا المستوى **للمقاومة**، أيضاً، الشَّخصيَّة الرئيسيَّة، أو محور السَّعي وهدفه.

بيروت الشَّارع الأخير

وتبدو بيروت، من منظور المقاومة، الشَّارع الأخير الذي تريد ألَّا تفقده، ولذا تتَّخذ قرار خوض معارك رهيبة. يقول الرَّاوي لزوجته، وهو يودِّع أولاده متوجِّهاً من دمشق إلى بيروت:

«هذه المعركة ستكون رهيبة. تذكرين أنَّني أسميت الفاكهاني[1] بالشَّارع الأخير... وداعاً... وداعاً... إذن يا زوجتي وأولادي، الصَّهاينة قادمون، ونحن ذاهبون للقائهم» (ص. ٩). والفاكهاني، هنا، يرمز إلى بيروت بوصفه المكان الذي كان للمقاومة وجود كثيف فيه.

صوت أمكنة الفَقْد المستحضر: لا تستسلم

مثَّلت بيروت «الشَّارع الأخير» للمقاومة، لهذا كانت حريصةً على ألَّا تفقدها كما فقدت أمكنة لها من قبل، بدءاً من النَّكبة والخروج من فلسطين، مروراً بالخروج على أثر هزيمة الخامس من حزيران، الشَّهر الذي لا يُنسى.

«حزيران شهر الأحلام المنهارة، الجيوش التي تناثرت جثث جنودها على رمال الصحارى، وفي شِعاب الوديان وسفوح الجبال».

ومروراً بأمكنة الشَّتات، حيث العذابان: عذاب اللجوء وعذاب السُّجون. يقول الرَّاوي:

«تذكَّرت، وأنا في السيَّارة القادمة إلى بيروت، والدي، تذكَّرت أصابع قدميه» التي اعوجَّت بسبب التَّعذيب، تذكَّرت رجليه اللَّتين ربطتا في مذواد الخيل في سجن أريحا» (ص. ١٠).

وصولاً إلى تلَّ الزَّعتر والدكوانه، حيث حدث ما يشيب الشَّعر ويحطِّم القلب (ص. ١٥٥).

تستحضر هذه الأمكنة، لتعزِّز القرار الذي اتُّخذ بالمقاومة وعدم

(١) الفاكهاني: شارع في بيروت كان للمقاومة الفلسطينية وجود كثيف.

الاستسلام، تقول المرأة الفلسطينيَّة العجوز بلسان الأيَّام الطَّويلة المرَّة التي عاشتها: «أوعكم تستسلموا. ما فش أبشع من الاستسلام»، وتكرِّر قولها، في ختام سردها مأساة أسرتها: «اللي بيستسلم لازم ذبحه ذبح، لأنَّه بيستاهلش رصاصة في رأسه... آخ... إنتو مش عارفين شو رايحين يعملوا فيكم إذا استسلموا... جوزي راح وولادي». (ص. ١٥٥ ـ ١٥٧).

تحمُّل الجحيم

وإذا، اتخذت بيروت هذا الموقع، خاضت المقاومة، بمختلف مكوِّناتها، المعركة الرَّهيبة. يصوِّر الرَّاوي هذه المعركة من مختلف جوانبها، حيث كان لكلِّ مكوِّن/ ممثِّل للعامل الذَّات دوره.

ففي ساعة من الزَّمن التقى الكتَّاب في غرفة الإذاعة، وهي ضيِّقة جدَّاً وصغيرة جدَّاً، وأخذوا يكتبون، وراح المذيعون يذيعون مانحين الكلمات حياة وروحاً وحرارة، في الوقت الذي كانت الصَّواريخ الأميركيَّة تتساقط على مقربة منهم (ص. ١٥ و١٦). تنقَّلت الإذاعة من مكانٍ إلى آخر، وبقي الصَّوت المقاوم يعلو...

وأمام البوارج الصهيونيَّة، في محلَّة «كراكاس»، ولدت جريدة المعركة، فكانت جريدة كل بيروت مهما كانت الانتماءات وقد جعلت الأقلام الشُّجاعة التي راحت تكتب فيها المعركة زاداً يوميَّاً لأهل بيروت (ص. ٥٩ ـ ٦١).

وعلى المحاور، في خلده وعرمون والمتحف، وقف المقاومون يردُّون الزَّحف، ويدور القتال وجهاً لوجه، وتخفق محاولات الإنزال، وتحصَّن بيروت.

يشتدُّ الحصار والقصف، يُقطع الماء والكهرباء وتصادر المؤن، فتواجه بمولِّدات الكهرباء والشَّمع والتَّعاون والتَّضحيات، فتبدو بيروت «شمعة تضيء وترتعش... تضيء رغم كل ما يحيط بها من ظلام» (ص. ٤٩).

ويشهد الرَّاوي: «نحن محاصرون بأحقاد الطَّوائف، وبالصهاينة، وبفشل

الدَّعوات لاجتماعات القمَّة ووزراء الخارجيَّة، وتفاهة الدَّعوات لإرسال تبرعات... إنَّنا ندفع ثمن خروج أمَّة من أزمنة الانحطاط، وما دمنا قد انتدبنا أنفسنا لهذا الهمِّ الجليل...، فلنتحمَّل هذا الجَّحيم». (ص. ٧٠).

يتحمَّل المقاومون والنَّاس العاديون القصف والموت والدَّمار والفساد...، ويقدِّمون التَّضحيات ويجترحون البطولات، ومن نماذجها «أنَّ بائع الخضار العربي، الرقيب السابق المواطن الفقير، قد دمَّر ثماني دبَّابات...». وتشير هذه البطولات إلى المستقبل الذي لا بدَّ من أن يتحقَّق عندما يُعطى المواطن إمكانات الفعل. (ص. ١٤٦).

ولكن كان الرَّحيل في النِّهاية، كما قلنا من قبل، وتركت بيروت لتواجه الأيَّام الآتية، وكانت أيَّاماً رهيبة...

شهادة حيَّة عن بيروت المقاومة

تروي هذه الرِّواية الوقائع، وتصوِّر المشاهد والمواقف، وترسم الشَّخصيَّات وهي تعمل، وينتظم هذا كلُّه في سياق سردي، يتتبَّع مسار الاجتياح، ليس على شكل يوميَّات متتالية، وإنَّما على شكل يوميات متقطِّعة ومتداخلة، ويمضي السِّياق في مسار خطِّي لا يخلو من تكسُّر وارتداد إلى الماضي، ليلتقط ما يوظِّف في بيان رؤية الرَّاوي إلى الصِّراع الدَّائر.

تمثِّل هذه الرِّواية شهادة حيَّة لأديب شارك في المعارك، فكان مشاركاً وراوياً، فأدَّى شهادته بلغة عفويَّة، بسيطة، حارَّة، تتابع جملها كأنَّها الرَّشق...

شهد الرَّاوي الأحداث التي جرت في بيروت وعلى أبوابها، وفي الطُّرق الموصلة إليها، فقدَّم شهادته عن بيروت، وفرادتها وناسها ومبانيها ومؤسَّساتها وشوارعها ومحاورها ومقاوميها وبطولاتهم ومعاناتهم الفظيعة... فالرَّاوي، هنا، هو المؤلِّف نفسه، يروي ما يعيشه ويعانيه، ولا يوكل القصَّ إلى راوٍ آخر إلَّا في حالات الحوار.

تقاوم بيروت «الفَقْد»، فَقْد فضاء الفاعليَّة/ المقاومة بمختلف الإمكانات

المتاحة لها، وتثبت أنَّ الَّذين عاشوا «جحيم» الاجتياح والحصار... يمكن أن ينتصروا إن أتيحت لهم فرص الفعل، وقد حدث هذا الانتصار فعلاً عام ٢٠٠٠ وعام ٢٠٠٦ في مرحلتين تاليتين من مراحل الصِّراع الطَّويل مع الكيان الصُّهيوني.

وتبقى النِّهاية مفتوحة، وتظلُّ بيروت المدينة الفريدة المقاومة لكلِّ من يسعى إلى جعلها مدينة أخرى لا تشبه بيروت.

وإذ نعلم أنَّ الرِّواية نوع أدبي لا يزال في طور التَّكوين، وأنَّ لا يشكل نهائياً ومحدَّداً لها، نرى أنَّ «آه يا بيروت» رواية تروي سيرة بيروت المقاومة متَّخذةً شكلاً جديداً من أشكال الرِّواية.

❐❐❐